الآراء التى تسيرنا

إن هذا العالم الذى نعيش فيه تسيره مجموعة مختلفة من الآراء ، بعضها يدفعنا إلى الأمام وبعضها الآخر يدفعنا إلى الخلف . الآراء الأولى تعمل لتقدم الانسانية وتعيننا على تحقيق ما نصبو إليه . والآراء الأخرى تقف عقبة فى سبيل التقدم وتعوقنا عن تحقيق مانرمى إليه من أغراض . وقد كتب الفيلسوف الانجليزى المعاصر برتراند رسل بحثين موجزين تعرض فى أولها للآراء التى آذتنا ، وفى ثانيهما للآراء التى عاوقتنا . وقد رأيت أن أقدم هذين البحثين فى مقالين أخص بهما قراء هذه المجلة . وسوف أعرض فى هذا المقال للآراء الفاسدة التى تسود العالم وتعوق تقدمه .

إن النكبات التى حلت بالانسان خلال العصور التاريخية جميعاً ترجع إلى عاملين أساسيين : أولها البيئة ، وثانيهما العقائد الخبيثة التى يبثها بيننا بعض من يتزعمون قيادة الفكر الانسانى . فقد كان الانسان فى العصر القديم يقاسى المجاعات بين الحين والآخر من أثر العوامل الطبيعية ، ولكنه اليوم يقاسى الحرمان والجوع بسبب الآراء الفاسدة التى يسير عليها من يتولون الأمر منا . ولا مراء فى أن الآراء الفاسدة أقوى أثراً من البيئة فى عرقلة التقدم البشرى . ويكفى أن نفكر فيما آل إليه أمرنا بعد الحرب العالمية الأخيرة لندرك مقدار ماجناه علينا كبار الساسة فى العالم . فالانسان — كما يقولون — أكبر عدو للانسان ، وأكثر ما يصيبنا من شر مصدره مافى عقل الانسان من غباء ومافى نفسه من حب للشرّ دفين .

إن كثيراً من ميولنا سافل دنىء ، ومأكثر مانصوغ من رأى فاسد ومبدأ غير قويم حجباً نستر بها هذه الميول .

فكان يُحكم مثلا على الزنادقة فى لشبونة فى العصر القديم بالإحراق العلنى . وكان يحدث أحيانا أن تخفف هذه العقوبة بخنق المذنب قبل إحراقه

تخفيفاً للآلام التى يعانيها . فكان هذا التخفيف يسئ إلى الجمهور أشد الاساءة ؛ لأن الآهات والأنات التى كان يصيح بها المذنب من فعل اللهب تسرّى عن المتفرجين وتبعث السرور فى نفوسهم . وهذه المتعة التى كان يجدها الجمهور فى تعذيب الآخرين كانت تدفعهم إلى الاعتقاد بأن إحراق الزنادقة أمر مشروع . وكذلك كانت الحال — وما تزال — فى الحرب ذاتها ؛ فان قوماً أشداء متوحشين يستمتعون بالقتال وبخاصة إن كانوا ظافرين غير خاسرين . وهم من أجل هـذا يحاولون إغراء مواطنيهم بأن الحرب حق مشروع . وكذلك المربى الذى يرى ضرورة استخدام العصا كثيراً ما يدفعه إلى هذه العقيدة حبه إيقاع الأذى بالأطفال .

ومن اليسير أن نضرب الكثير من الأمثال نثبت بها صدق النظرية التى تقول بأن الآراء التى تسوّغ القسوة مبعثها رغبة فى القسوة كامنة . وأكثر الآراء العتيقة التى نمجها اليوم تسوّغ إيذاء الآخرين . وقد كان «البنج» عند أول اكتشافه واستخدامه يعتبر شرا من الشرور ؛ لأنه محاولة لمقاومة الارادة الإلهية التى تقضى بالعذاب والألم ! وكان يظن بالمجنون مس من الشيطان ، ولا سبيل إلى إبعاد هذا الشيطان إلا بايلام المجنون ، وإزعاج الشيطان الذى يتلبس به . ومن ثم كان المجانين يعاملون بمنتهى القسوة والتوحش . وكذلك كان يعامل الأبناء والزوجات والحيوان . ومرد ذلك كما قلنا إلى ماعند الانسان من رغبة فى إيقاع الأذى بالآخرين ، وهو مايطلق عليه اسم «السادزم» .

ولعل أقوى الآراء أثراً فى تأخر الانسان هو ما نستطيع أن نسميه بالخرافات الدينية ؛ فقد كانت بعض الأديان القديمة مثلا تزعم أن التضحية البشرية تعود على الفلاحين بمحصول زراعى وافر . وكانت هذه الظاهرة تعلل فى مبدأ الأمر بفعل السحر ، ثم علت بعدئذ بأن دماء الضحايا تسر الآلهة الذين كانوا من غير شك على صورة القوم الذين يعبدونهم . وكذلك جاء فى العهد القديم أن الدين يحتم إبادة الشعوب المهزومة إبادة تامة ، وأن إعفاء ماشيتهم وأغنامهم من القتل إثم من الآثام . وكان المصريون القدماء يعيشون فى رعب مما ينتظرهم من عذاب وآلام فى الحياة الأخرى .

وأوجدت المسيحية طائفة من القديسين المتشائمين استنعوا عن الملاذ الحسية

واعتزلوا الناس فى الصحراء وحظروا على أنفسهم اللحم والنبيذ وعشرة النساء ، وحسبوا اللذة الروحية ، أسمى من اللذة البدنية . وكان من أمتع ملاذهم الروحية أن يتأملوا العذاب المقيم الذى سوف يتعرض له الكفار والزنادقة فى الدار الآخرة . إن من مساوىء التزهد أن الزاهد لايرى فى الملاذ ضرراً غير ضرر البدن . ولكنا يجب ألا نغفل عن أن اللذة الروحية البحتة قد تكون أسوأ الملاذ ، كما قد تكون خيرها . ونسوق لذلك مثالا الشيطان فى الفردوس المفقود لملتن ، فان أسمى ملاذه أن يتدبر مايستطيع أن يلحق بالانسان من أذى ، وفى ذلك يقول شيطان لملتن : «يستطيع العقل أن يجعل من الجحيم نعيما ومن النعيم جحيما . » وهو فى هذا لايختلف عن الرجل ينعم فى جنته بالنظر إلى عذاب الكفار فى الجحيم . ومن المؤكد أن احتقار الزهاد للملاذ الحسية لم يؤد بهم إلى الشفقة والتسامح أو غير ذلك من الفضائل التى يسوقنا إلى الرغبة فيها عدم الاعتقاد فى الخرافة . بل الأمر على نقيض ذلك ، فان المرء حينما يعذب نفسه يحس أن من حقه من أجل ذلك أن يعذب الآخرين ويدفعه ذلك إلى قبول أية عقيدة تؤكد له هذا الحق .

ولا يقتصر هذا اللون من القسوة الذى يدفع إليه الزهد على العقائد المسيحية الصارمة التى قلما يعتنقها اليوم أحد ، بل لقد أثبت العالم غيرها من طرازها . فقد كان النازيون قبل استيلائهم على السلطة يعيشون عيشة شاقة ، مضحين براحتهم ومتعتهم ، متبعين فى ذلك مبادئ نيتشه التى تدعو إلى الشظف والتقشف . بل إن النازيين حتى بعد استيلائهم على السلطة كانوا يرددون هذه العبارة : « المدافع قبل الزبد » وفى هذا الرأى تضحية بمتعة الحس فى سبيل المتعة الذهنية فى النصر المرتقب ، وهى المتعة عينها التى يتعزى بها شيطان ملتن وهو يحترق بنيران الجحيم . وهذا الضرب من التفكير هو بعينه الذى يسيطر على عقول الاشتراكيين المتحمسين الذين يرون أن الترف رذيلة ، وأن الجد فى العمل هو واجبنا الأول ، وأن الفقر الشامل هو الطريق المؤدى إلى العصر الذهبى . إن الجمع بين الزهد والقسوة لم يختف مع ضعف العقيدة المسيحية ، وإنما اتخذ له صوراً جديدة لاتتفق وروح المسيحية ؛ ولا تزال هذه العقلية تسير الكثيرين من عباد الله .

وكلنا يعلم أن الشر لايلحق بالآثم وحده ، ولكنه كثيراً مايلحق كذلك

بالبرىء . ومن أجل ذلك قال الناس فيما مضى : لا بد أن يكون هناك من يحب الشر للشر . ومن ثم نشأت العقيدة فى الشيطان والمشعوذ والساحر . وكانت الساحرة فى العصور الوسطى هى المرأة التى تؤذى غيرها لمجرد الحقد وحب الايذاء لا لرغبة فى فائدة تجنيها . وقد أعطتنا العقيدة فى السحر حتى منتصف القرن السابع عشر منقذاً نطمئن إليه تنفذ منه ميولنا نحو القسوة . وعلى هذا الأساس كانت محاكم التفتيش لا تعاقب الساحرات وحدهن ، ولكنها كانت تعاقب كذلك أولئك الذين لا يؤمنون بالسحر . ولما تقدمت العلوم وهدتنا إلى كثير من الأسباب الطبيعية بددت العقيدة فى السحر ، ولكنها لم تستطع أن تقضى على المخاوف والاحساس بالقلق التى كانت الدافع إليها ، فانتقلنا من خوف السحرة إلى خوف الشعوب الأجنبية .

وأنتقل الآن إلى باعث آخر من أقوى البواعث على بث العقائد الفاسدة . ذلك هو الحسد . فالفقير يحسد الغنى ويتهمه بشدة الحرص والبخل ، والمرأة تغار من المرأة ، والموظف المتخلف يغار من زميله المتقدم ، ويعزو تقدمه إلى ملقه لا إلى قدرته . وقد أدى الحسد إلى نتائج سيئة خطيرة فيما يتعلق بالفوائد الاقتصادية التى تعود على الأفراد والأمم على السواء . والقصة التالية تمثل لما أقول :

كانت هناك فى وقت من الأوقات مدينة متوسطة الحجم بها عدد كاف من القصابين والخبازين ومن إليهم . وقد فكر أحد القصابين المبالغين فى الجد والعمل ذات يوم أنه يضاعف أرباحه لو أن كل قصاب غيره قد أفلس واحتكر وحده سوق اللحم . فخفض من سعر اللحم وأقبل عليه المشترون ، ونجح فيما كان يصبو إليه ، برغم أن خسائره كادت تستنفد كل ماله من رأس مال ورصيد . وقد طرأت هذه الفكرة عينها لخباز مجد وحقق بها مايريد واختفى من السوق كل خباز سواه . وحدث مثل ذلك فى كل السلع التى كانت تباع فى السوق . وكان كل من احتكر صنفاً من الأصناف يسعد بأمل تكوين الثروة . بيد أن القصابين المفلسين لم يعودوا لسوء الحظ قادرين على شراء الخبز . وكذلك لم يعد الخبازون المفلسون بقادرين على شراء اللحم ، وقد اضطروا إلى الاستغناء عن عملهم ، واضطر هؤلاء العمال إلى الهجرة إلى بلد آخر . فكانت النتيجة أن القصاب والخباز وغيرهما من أصحاب الاحتكار أصبحوا يبيعون أقل

مما كانوا يفعلون فيما سلف من الأيام . إنهم نسوا أن الرجل قد يضارّ على يدى منافسيه ولكنه ينتفع بزبائنه ، وأن الزبائن يتكاثرون كلما ارتفع مستوى العيش العام . لقد جعلهم الحسد يركزون انتباههم فى منافسيهم وينسون تمام النسيان مصلحتهم التى تتوقف على الزبائن .

هذه قصة خرافية ، والمدينة التى تحدثت عنها لم يكن لها وجود . غير أنك لو استبدلت بالمدينة العالم وبالأفراد الأمم ، كانت لك صورة من السياسة الاقتصادية التى يسير عليها العالم فى هذه الأيام . فإن كل أمة تعتقد أن مصلحتها الاقتصادية تتعارض مع مصالح غيرها من الأمم ، وأنها تكسب إذا أفلس غيرها . وكان الانجليز فى أيام الحرب العالمية الأولى يقولون : إن التجارة الانجليزية تفيد من كساد التجارة الألمانية ، ويعتقدون أن هذه النتيجة وحدها من خير ثمار النصر . وبالرغم من أن انجلترا فى الوقت الحاضر تحب أن تجد لها سوقاً فى القارة الأوربية ، وبالرغم من أن الحياة الاقتصادية فى غرب أوربا تتوقف على فم منطقة الرهر ، فان الانجليز لا يسمحون للصناعات القائمة على فم الرهر ، بأن تنتج أكثر من جانب يسير مما كانت تنتجه قبل هزيمة الألمان . إن فلسفة الاقتصاد القومى التى تعم العالم بأسره اليوم تقوم على عقيدة فاسدة ، وهى أن المصلحة الاقتصادية للأمة تتعارض مع المصالح الاقتصادية للأمم الأخرى . وهذه العقيدة الفاسدة تولد العداوات والمنافسات الدولية ، فتكون سبباً من أسباب الحرب . وهى بهذه الطريقة تصبح حقيقة ثابتة ؛ لأن تضارب الأمم فى مصالحها يصبح أمراً واقعيا بمجرد نشوب الحرب . ولو أنك حاولت أن تفسر لرجل يشتغل مثلا بصناعة الصلب أن انتعاش الأمم الأخرى قد يكون فى مصلحته ما أمكنك إقناعه ؛ لأن الأجانب الذين يعرفهم معرفة جلية ، هم منافسوه فى صناعة الصلب وحدهم . أما غيرهم من الأجانب فهم أشباح لاتربطهم به صلة عاطفية من أى نوع .

ذلك هو الأصل النفسانى للاقتصاد القومى وللحروب والمجاعات المصطنعة وغير ذلك من الشرور التى سوف تقوض مدنيتنا وتأتى عليها . اللهم إلا إذا اقتنع الناس بعقائد غير هذه أوسع منها أفقاً وأشد منها تعقلا فيما يتعلق بتناول الصلات بينهم .

ومن الأسباب الأخرى التى تولد العقائد الفاسدة المؤذية حب التعالى والتفاخر . يفخر المرء بقوميته ، كما يفخر بعنصره ، وبجنسه ، وبالطبقة التى ينتمى إليها ، وبالمذهب الذى يعتنقه . فما أكثر ما أصاب العالم من احتقار الدول الكبرى للصغرى ، ومن التنافس بين انجلترا وألمانيا ، أو المجر ورومانيا مثلا ! وقد أوذينا من الزهو بالعنصر أكثر مما أوذينا من الزهو بالقومية . فذو البشرة البيضاء يزدرى ذا البشرة السوداء وإن يكن هذا الأخير أرقى منه عقلا وأكثر منه تمدناً . والانجليزى يحتقر الهندى مهما تكن ثقافته . والواقع أننا لا يمكن أن نعتقد فى تفوق عنصر على آخر لأى سبب من الأسباب . ولا تزكو هذه العقيدة إلا إذا عززتها السيادة الحربية . فاليابانيون كانوا يحتقرون الجنس الأبيض عندما كانوا ظافرين فى الحرب ، وهى استجابة للاحتقار الذى كان يحس به الجنس الأبيض إزاء اليابانيين أيام ضعفهم . ولكنا مع ذلك لانذكر أن الزهو العنصرى قد لا تكون له صلة بالعظمة الحربية . فالاغريق كانوا يحتقرون البرابرة حتى فى العهود التى كان فيها البرابرة يبذونهم فى القوة الحربية . وكان المستنيرون من الاغريق يعتقدون أن الرق جائز مادام الرقيق بربريا والسيد يونانيا . وأما إذا انقلب الوضع فان ذلك يكون مضاداً للطبيعة . وكان اليهود فى الزمان القديم يعتقدون بتفوقهم على غيرهم من العناصر الأخرى . فلما أصبحت المسيحية دين الدولة اعتقد المسيحيون أنهم أرقى عنصراً من اليهود . ولامراء فى أن الضرر الذى يلحق بنا من أمثال هذه العقائد لاحد له . ويجب أن تتجه التربية إلى إزالتها . ولكنا نأسف أن نقرر أننا لا نفعل ذلك ولا نحاوله .

ولا ننسى أن نذكر هنا نظام الطبقات فى الهند ، ذلك النظام الذى نجمت عنه الغزوات المتتالية التى قامت بها العناصر «الراقية» من أهل الشمال ، وهو نظام لايقره العقل السليم ، كما لا يقر مايزعمه ذوو البشرة البيضاء لأنفسهم من تفوق وارتقاء .

ومن الأمثلة العجيبة للتفاخر مايعتقده بعض الناس — بل أكثر الناس — بتفوق الذكور على الاناث . وهى عقيدة لا تعترف بها الهيئات المسئولة اليوم فى بلدان الغرب . ولم يكن هناك فيما أرى مايدعو إلى الاعتقاد بالتفوق الطبيعى للرجل على المرأة غير قوة عضلاته . وقد رتب الرجل على

ذلك أنه لابد أن يكون أقوى عقلا وأقدر على الابتكار وأقل تأثراً بالعواطف من المرأة وغير ذلك . وتحت هذا التأثير قرر علماء التشريع أن ذهن الرجل يتميز على ذهن المرأة . ولما ظفرت المرأة بحق التصويت تلاشت كل البراهين العلمية على تفوق الرجل ، وأخذ الناس يعتقدون بالمساواة العقلية بين الجنسين .

وقد كان لسيطرة الرجل على المرأة آثار سيئة ؛ فقد جعلت أشد العلاقات الانسانية إخلاصاً — أعنى الزواج — علاقة سيد ومسود بدلا من أن تكون علاقة بين شريكين متساويين . ومن ثم ترى الرجل يتغزل فى كل امرأة إلا زوجته . وقد فرضت سيطرة الرجال على الزوجات شيئاً من العزلة جعلهن غبيات لا يؤنسن أزواجهن . بل ان المجتمع لينبذ المرأة المؤنسة المغامرة ولما كانت المرأة التى تريد أن تحتفظ بشرفها — كما يرى الرجال الشرف — عملة لا تسرّى ولا تلهم فان أرقى الرجال مدنية فى أرقى البلدان مدنية كثيراً ما يمارسون العادات الجنسية الشاذة . ولما كان الزوجان فى اكثر الأحيان غير متكافئين ، قويت عند الرجال شوكة السيطرة وعانى المجتمع من جراء ذلك ماعانى .

هذه التفرقة بين الرجال والنساء وما ترتب عليها قد انتهى عهدها فى أكثر البلدان المتمدنة ؛ غير أنه لا بد أن ينقضى وقت طويل قبل أن يتعلم الرجال والنساء على السواء كيف يكيفون سلوكهم تكييفاً يلائم الحالة الجديدة تمام الملاءمة . ومن الثابت أن تحرير المرأة كثيراً ما تعقبه فى بادئ الأمر آثار سيئة . فانه يبعث الحقد فى نفوس الرجال لفقدانهم سيادتهم ، كما يبعث النساء على التبجح كى يعوضن ما سبق لهن من نقص . ولكنا نرجو أن يسوى الزمن هذه المشكلة كما فعل فى غيرها من المشكلات .

وهناك ضرب آخر من ضروب التفاخر أخذ يختفى فى أكثر البلدان . غير أنه ما يزال قائما فى روسيا السوفيتية ، وهو تكبر طبقة على أخرى . فان الولد من أبناء طبقة العمال فى روسيا يتمتع بميزات لا يتمتع بها غيره من أبناء طبقة البرجوازى . والواقع أن فوارق الطبقات لم تزل كل الزوال من جميع البلدان . ففى أمريكا مثلا يعتقد الفرد أن ليس فوقه من يعلوه اجتماعيا مادام الناس جميعاً سواسية ، ولكنه لايعترف أن ليس هناك من ينحط

عنه . لأن المساواة بين الفرد ومن يعلوه سادت فى أمريكا من عهد جفرسن ، ولم تسد المساواة بين الفرد ومن ينحط عنه . والحقيقة أن موضوع المساواة بين الناس ينطوى على نفاق عظيم ويشوبه كثير من الغموض . ويستحيل أن يتلاشى التميز بين الطبقات ما دامت هناك هذه الفوارق الشاسعة بين الأفراد فى الثروة . ولا شك أن المساواة الاقتصادية تعمل للتسوية بين الطبقات . وأثر الحرب الكبرى فى هذا واضح لايحتاج إلى تنبيه . غير أن ضربا من ضروب النعرة مافتئ سائدا عند بعض الانجليز ، إلا أنها نعرة مردها إلى التربية ولهجة الكلام ، لا إلى الثروة والمركز الاجتماعى بالمعنى القديم .

والتفاخر بالمذهب ضرب آخر من ضروب التعالى . فكثير من الأمريكان يعتقدون أن الصينيين قوم بغير فضائل ؛ لأنهم ملاحدة لا يؤمنون بما يدين به الأمريكيون . وكذلك كان المسيحيون والمسلمون فى العصور الوسطى يتباهون بعضهم على بعض بالعقيدة الدينية .

كل هذه وسائل مختلفة يتخذها الناس لارضاء كبريائهم وشعورهم «بالعظمة» . لأن الانسان لايسعد إلا إذا كان لديه مايسوّغ به احترامه لذاته . نحن بشر ، فالبشر إذن هم الغرض من الخليقة كلها . ونحن أمريكيون — مثلا — فأمريكا إذن هى بلد الله المختار . ونحن بيض ، فلعنة الله إذن على حام وذريته السود . ونحن كاثوليك أو بروتستانت ، وإذن فغيرنا ممن ليسوا بكاثوليك أو بروتستانت يستحقون غضب الله . ونحن ذكور ، فالنساء إذن ناقصات عقل . أو نحن رجال ، فالرجال إذن وحوش . ونحن شرقيون ، وإذن فأبناء الغرب كلهم جشع وطمع . أو نحن غربيون ، فالشرقيون إذن قوم لارجاء فيهم . ونحن نعمل بأذهاننا ، وإذن فالطبقات المتعلمة هى أرقى الطبقات . أو نحن نعمل بأيدينا ، وإذن فالعمل اليدوى وحده هو الذى يكسب صاحبه الكرامة . وأخيرا — وفوق هذا كله — أن لكل منا ميزة خاصة هى شخصيته التى يتميز بها من غيره ، وإذن فهو خير عباد الله .

بهذه الآراء التى تملأ أذهاننا نخرج إلى النضال فى العالم . وبغير هذه الآراء قد تخوننا شجاعتنا . وبغيرها — فى الظروف الراهنة — نحس بالحطة . لأننا لم نتعلم الاحساس بالمساواة . وإذا أحسسنا حقا أننا مساوون لجيراننا لانتميز

منهم ولا نقل عنهم فى شى ، فلربما أمست الحياة أقل نضالا ، وأصبحنا أقل حاجة إلى هذه الخرافات نخدربها عقولنا لنستمد الشجاعة فى الكفاح .

ومن العقائد الخداعة الضارة التى يتعرض لها الأفراد كما تتعرض لها الأمم ، أن تتخيل طائفة من الطوائف نفسها أداة خاصة لتنفيذ إرادة إلهية معينة . فبنو إسرائيل كانوا يعتقدون عندما غزوا أرض المعاد أنهم إنما ينفذون إرادة السماء . وأهل روما كانوا يحسبون أن الالهة أرادتهم على غزو العالم . وكان كرمويل يؤمن إيماناً صادقاً أن العناية الالهية أرادته أداة عادلة لهزيمة الكاثوليك . وهاهم أولاء الماركسيون يحملون اليوم سيف الله . وتقديس هذه العقائد يسوّغ القسوة التى لايسوّغها عقيدة من أصل دنيوى .

إن العقيدة فى رسالة سماوية صورة من الصور العديدة لليقين الثابت الذى يتصف به الجنس البشرى . وكثير من الشرور التى يصيب الناس بها بعضهم بعضا ، منشؤها عقيدة يقينية بفكرة خاطئة آمن بها قوم من الناس .

إن معرفة الحق أشق مما يظن الكثيرون . ومن أسباب الكوارث الكبرى التى تلم بنا أن يؤمن أحدنا إيمانا ثابتاً لا يتزعزع أن الحق وقف عليه دون غيره . ولذا وجب علينا أن نرتاب فيما يزعمه لنا بعض أصحاب الرأى من أن الرضا ببعض الشر واجب إن كانت من ورائه فائدة مرجوة مرتقبة . وذلك لأن العلم بما يخبئه لنا المستقبل مستحيل . ومن العسير حتى على أحدّنا ذكاء أن يتكهن بما سوف يحل بنا حتى بعد فترة وجيزة من الزمن . ومن ثم كان التسامح لزاماً علينا فى حياتنا الخاصة والعامة . كما أنه حتم علينا ألا نزعم لأنفسنا قدرة خارقة على قراءة المستقبل .

ولقد كنت أستطيع أن أسمى هذا المقال «الآراء تؤذينا» لأننا إذا أدركنا أن معرفة المستقبل مستحيلة ، وأن الآراء بشأنه كثيرة ، علمنا أن الرأى الذى نعتنقه قد يرجح فيه الخطأ على الصواب .

إن كل ما تتصور حدوثه بعد عشرسنوات خاطىء يقينا ، اللهم إلا إن كان شيئا من قبيل أن الشمس ستشرق غداً مما لايتصل بالعلاقات الانسانية .

ولرب معترض يقول : كيف إذن يمكن السياسى أن يتدبر الأمر دون أن تكون معرفة المستقبل ممكنة ولو إلى حد ؟ وأنا لا أقول إننا

نجهل المستقبل جهلا تاما ، بل إنى لأقول إن بعض التكهن بالمستقبل ضرورة لا بد منها . فمن التكهنات الصادقة أنك إن وصمت شخصاً بالدناءة والسفالة كان جزاؤك منه المقت والكراهية ، وأنك إن وصمت الناس جميعاً بهذا فانهم جميعاً يمقتونك . ولك أن تتكهن بأن المنافسة الدنيئة تولد سوء العلاقة بين المتنافسين . ومن المؤكد أنك لو سلحت أمتين تسليحاً حديثاً وسمحت لها أن يحشدا الجند على الحدود بينها ثم ساء الشعور المتبادل بين زعماء الأمتين ، توترت الأعصاب وبادرت إحدى الأمتين بالهجوم خشية أن تسبقها الأخرى إلى ذلك . ومن المؤكد أن حرباً كبيرة حديثة لن ترفع مستوى العيش حتى بين القوم الظافرين . مثل هذه القواعد العامة لا تصعب معرفتها ، وإنما يصعب علينا أن نتكهن تفصيلا بالنتائج البعيدة لسياسة مرسومة . فبسمارك — مثلا — انتصر فى ثلاث حروب ووحّد ألمانيا ، فكانت النتيجة البعيدة لهذه السياسة أن ألمانيا منيت بهزيمتين كبيرتين كانتا نتيجة أن بسمارك علم الألمان ألا يأبهوا بمصالح أية أمة غير ألمانيا . فخلق بين الألمان روح عدوان ألّب العالم فى النهاية على خلفائه .

إننا لا ننكر أن الآراء الاجتماعية التى يمكن أن نفيد منها كثيراً جداً ، ومن أمثلتها الايمان بالحكومة العالمية ، وتحاشى الحروب ، ومعالجة البطالة ، وإزالة أحياء الفقراء القذرة وإقامة غيرها مما تتوافر فيه الشروط الصحية ، وما إلى ذلك ، آراء فى الاصلاح . غير أنا لا نستطيع تحقيق أغراضنا لسوء نظام الحكم . فالحكومة إما مستبدة متحيزة أو ديمقراطية عاجزة .

فنحن إذن فى الوقت الحاضر فى حاجة إلى أمرين : أولها التنظيم — التنظيم السياسى للتخلص من الحروب ، والتنظيم الاقتصادى لتمكين الناس من العمل المنتج وبخاصة فى البلاد التى خربتها الحرب ، وتنظيم التعليم حتى نخلق فى الجيل الجديد عقيدة ثابتة بضرورة الحكومة العالمية . وثانيهما أن نتخلق بصفات خلقية خاصة — هى تلك الصفات التى نادى بها علماء الأخلاق منذ زمان بعيد ، ولكنها لم تؤت ثمارها بعد . وأهم هذه الصفات حب الخير ، والتسامح ، والتخلص من التعصب الذى تدفعنا إليه الآراء السائدة .

وهذان الغرضان — التنظيم والأخلاق — متشابكان متداخلان ، يؤدى

أحدهما إلى الآخر . ومن واجبنا أن نرمى إلى الغرضين فى آن واحد . فلا مناص من التخلى تدريجاً عن الأخلاق الوضيعة التى تعقب الحروب عادة . ولا بد من زيادة تدريجية فى المؤسسات التى بوساطتها يستطيع الانسان أن يتعاون مع أخيه الانسان . ولا بد لنا من أن ندرك عقلا وخلقاً فى آن واحد أننا أسرة واحدة ، وأن سعادة فرع من فروع هذه الأسرة لا يمكن أن يتوقف على تدهور فرع آخر .

إن عيوبنا الخلقية تعوقنا عن التفكير السليم ، وتفكيرنا الشائك يشجعنا على التمادى فى عيوبنا الخلقية . وإنى لأرجو أن تبعث القنبلة الذرية الهلع فى نفوس البشر فترشدهم إلى التفكير السليم وتهديهم إلى التسامح . وإن حدث هذا فقد استحق مخترعوها منا أطيب الثناء .

محمود محمود